الفصل الخامس

المـدرسة التاريخـة فى مصر

النشـأة.

القصص والقصاصون.

المـــؤرخـون الأول .

نماذج التأليف التاريخي.

الفصل الخامس

المـدرسة التاريخـة فى مصر

النشـأة.

القصص والقصاصون.

المـــؤرخـون الأول .

نماذج التأليف التاريخي.

كتابات لشهود عيان.

ومع نشأة المدرسة التاريخية المصرية وظهور كتابات ابن عبد الحكيم عن تاريخ الفتح الإسلامي لمصر، يشهد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي عدداً من المؤرخين المسلمين الذين أدلوا بدلوهم في كتابة التاريخ وإن غلب علي كتاباتهم تدوين تاريخ الكنيسة، ومنهم سعيد بن البطريق ٨٧٦ : ٩٦٠م، وهو كما وصفة المؤرخون كان عالماً في الطب والتاريخ وإن لم يخل تاريخه من بعض الأخطاء وساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين وهناك ما يشير إلي أن ساويرس لم يكن يعرف اللغتين القبطية أو اليونانية وكان يلجأ إلي من يقوم له بترجمة بعض الوثائق التي استخدمها في كتابه، وهذا يؤكد اضمحلال هاتين اللغتين في تلك الفترة، وأن اللغة العربية كانت هي لغة العلم والكتابة والتأليف في تلك المرحلة.(١)

القصص والقصاصون

بدأت الحركة العلمية في مصر تخطو خطوات حثيثة نحو النضوج والتطور منذ أن أسس مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط، ومع هذه الحركة العلمية النشيطةظهرت بدايات واضحة نحو وضع أسس علم التاريخ الذي بدأ في مصرشأنه شأن البلدان الأخري بالقصص.

ويخبرنا المقريزي نقلا عن القضاعي: روي نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لم يقص في زمن رسول الله ﷺ ولا في زمن أبي بكر ولا عمر ولا عثمان رضي الله عنهم وإنما كان القصص في زمن معاوية..(٢)

بينما يقول عمر بن شيبة أن القصص أحدث في عصر عثمان بن عفان رضي الله عنه وأن أول القصاصين في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة كان تميم الداري، الذي استأذن عمر رضي الله عنه أن يذكر الناس فأبي عليه حتي كانت آخر

---

(١) فارن بتلر فتح العرب لمصر - ترجمة محمد فريد أبو حديد، ص ص ٢٩- ٣٠.

(٢) المقريزي الخطط ج٢، ص ٢٥٣

ولايته فأذن له، وكان يذكر الناس يوم الجمعة، وفي عهد عثمان رضي الله عنه كان يذكرالناس يومين كل أسبوع. أما في مصر فكان أول من قص بها سليمان بن عتر التجيبي المصري فيقول المقريزي (يقال إن إول من قص بمصر سليمان بن عتر التجيبي في سنة ثمان وثلاثين سته وجمع له القضاء إلي القصص ثم عزل عن القضاء وأفرد بالقصص وكانت ولايته علي القضاء سبعاً وثلاثين منهما سنتان قبل القضاء). (١)

ويختلف السيوطي مع المقريزي حول هذا الموضوع فيقول: إن سليم بن عتر التجيبي المصري أبو سلمة قاضي مصر وقاضيها وناسكها من الطبقة الأولي من التابعين شهد خطبة الفاروق عمر رضي الله عنه بالجابية، وهو أول من قص بمصر عام ٣٩ هـ/ ٦٥٩م وولاه معاوية القضاء بها أربعين سنة فأقام بها عشرين سنة (٢) كما يخبرنا أيضا أن سليم بن عتر التجيبي كان أول من أسجل بمصر سجلا في المواريث وتوفي بدمياط عام ٧٥هـ / ٦٩٤م ثم تولي القصص والقضاء في مصر من بعده وفي عام ٧٦هـ / ٦٩٥م عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني أو عبد الله المصري قاضي مصر روي عن أبن مسعود وأبي ذر وأبي هريرة، وكان عبد العزيز بن مروان والي مصر يرزقه في السنة ألف دينار فلايدخرها. (٣) ويروي أن المأمون رزق أبي العلاء عشرة دنانير علي القصص. (٣)

وتولي القضاء أيضاً أبو الخير مرثد بن عبد الله الحميري وكان قاضيا بالاسكندريه روي عن ثابت وابن عمر وأبي إمامة وعقبة بن عامر الجهني. قال ابن يونس: كان مفتي أهل مصر في زمانه، وكان عبد العزيز بن بن مروان يحضره فيجلسه للفتيا، وتوفي عام ٩٠هـ/ ٧٠٨م (٤)

وتولي القضاء أيضاً بمصر عقبة بن مسلم الهمذاني وفي عا م ١١٨ هـ/

---

(١) - المقريزي: الخطط جـ٢، ص ص ٢٥٣: ٢٥٤

(٢) قارن السيوطي: حسن المحاضرة: جـ١، ص٢٩٥

(٣) نفس المصدر: جـ١، ص ٢٩٦

(٤) السيوطي حسن المحاضرة جـ١، ص ٢٩٧

٧٣٦م تولي ثوبة بن نمير بن حرمل الحضرمي أبو محجن المصري قاضي مصر روي عن عفير عريف بن سويح، وقد جمع له القضاء والقصص بمصر وتوفي عام ١١٢هـ/ ٧٣٧م واستمر هذا التقليد معمولاً به في مصر (١) روي الليث بن سعد أن القصص نوعان. قصص العامة وقصص الخاصة، أما قصص العامة فهو الذي يجتمع إليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم، أما قصص الخاصة فهو الذي أمر به معاوية وولي عليه من يقوم بأمره وكان يجلس بعد صلاة الصبح يقص علي الناس يعظهم ويذكرهم، وإلي جانب القصص والقصاصون الذين كانوا يعملون بالمسجد الجامع في الفسطاط كما كانت هناك زوايا يدرس فيها الفقه من أشهرها زاوية الإمام الشافعي الذي قام بالتدريس فيها. (٢)

ففي جامع عمرو بن العاص وكما تحدثنا المصادر كان صحابة رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد لدعوة الناس إلي الإسلام مما عرف بمجالس القصاص، يقرأون عليهم القرآن الكريم ويحدثون بأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان أول من جلس في تاج الجوامع ليقص القصص علي المسلمين سليم بن عتر الصحابي وذلك في ولاية عمرو بن العاص، وذلك عملاً بما كان يتم في المسجد النبوي في المدينة

ويبدو أن القصص أصبح من الوظائف التي وضعها المسلمون ليواجهوا بها مجالس الخوارج والشيعة الذين كانوا يجلسون في المساجد محاولين التأثير علي الناس، ومن هنا نجد أن معاوية بن أبي سفيان قد جمع لسليم بن عتر التجيبي القضاء إلي جانب القصص إلي أن عزله عن القضاء، واختص منذ ذلك الوقت بالقصص. (٣)

وانتشرت مجالس القصص في مصر فكانت تعقد في مساجد الفسطاط والاسكندرية ودمياط، وتحدثنا مصادر التاريخ المصري عن عدد من هؤلاء

---

(١) المقريزي الخطط جـ٢. ص٢٥٤

(٢) نفسه

(٣) السيوطي حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٩٥

القصاص الذين اشتهروا في مصر من بينهم عقبة بن مسلم التجيبي، وثوبة بن نمير الحضرمي وخير بن نعيم الحضرمي، ومنصور بن عمار، وأبو رجب العلاء بن عاصم الخولاني والحسن بن الربيع بن سليمان وغيرهم.

كذلك حرص صحابة رسول الله ﷺ ممن حضروا إلي مصر وشهدوا الفتح علي رواية الأحاديث النبوية في مسجد عمرو بن العاص.(١) وعند الحديث عن نشأة المدرسة التاريخية الإسلامية في مصر، لابد وأن نؤكد علي حقيقتين هامتين الأولي: أن الفتح الإسلامي لمصر قد غير وجه التاريخ المصري، ذلك أن مصر قد عرفت بأن حضارتها تمصر كل داخل إليها، وظلت تحتفظ بأصول هذة الحضارة ومقوماتها فلم يتخل المصريون عنها علي مدي تاريخهم الطويل، أما الثانية: فقد صاحب الفتح الإسلامي لمصر اعتناق أهلها، للاسلام ورحبت مصر بالفاتحين، وتعلم المصريون لغة القرآن الكريم وأصبحت لغة الدولة والشعب علي السواء، وكانت هذه هي المرة الأولي في تاريخ مصر أن يغير المصريون لغتهم، وأن يدخلوا في دين الله أفواجاً ليكونوا من أشد الكتائب دفاعاً عن هذا الدين، ولتشهد مصر بذلك تغييراجذريا اضاف إلي ملامح حضارتها لتنصهر معها وتظهر حضارة جديدة هي الحضارة الإسلامية في مصر الاسلامية.

ومع الفتح الإسلامي لمصر أسست الفسطاط، ومن جامعها تاج الجوامع انبعثت الأفكار التي حملها المسلمون معهم، والتقت مع التراث المصري الذي التحمت فيه المؤثرات القديمة المصرية واليونانية والرومانية واليهودية والمسيحية لتذوب كلها أمام الفكر الجديد الذي حمله المسلمون معهم إلي عاصمة مصر.

وفي الفسطاط ظهرت بوادر الكتابة التاريخية علي أيدي رجال الفتح ومن بينهم بعض صحابة رسول لله ﷺ وبعض التابعين الذين أسهموا بشكل ملموس في نشأة هذة المدرسة ووضع الأسس التي قامت عليها.

---

(١) المقريزي: الخطط- حـ٢، ص٢٥٥.

(٢) در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة ،السيوطي .حسن المحاضرة :حـ١،ص٩٩ وما بعدها

فقد حضر مع جيش الفتح الإسلامي لمصر الذي بلغ تعداده كما تشير المصادر التاريخية خمسة عشرة ألف مقاتل، عدد كبير من صحابة رسول الله ﷺ من قريش ومن غيرهم منهم الزبير بن العوام وعبد الله بن عمرو وخارجة بن حذافه العدوي وعبد الله بن سعد بن ابي السرح وعبد الله بن عمر بن الخطاب وقيس بن العاص السهمي ونافع بن قيس الفهري والمقداد بن الأسود أبو عبد الرحمن بن يزيد أنيس الفهري وأبو رافع مولي رسول الله ﷺ وابن عبدة وعبد الرحمن وربيعة ابنا شرحبيل بن حسنة، وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد الانصاري وأبوالدرداء عويمر بن عامر، وأبو ذر جندب بن جنادة الغفاري وغيرهم.(١)

وتجدر الإشارة إلي أن صحابة رسول الله ﷺ وسلم الذين دخلوا مصر مع الفتح الإسلامي بلغ عددهم مائة ونيفا وأربعين صحابياً، ويخبرنا السيوطي أن الإمام محمد بن الربيع الجيزي قد ألف كتابا في مجلد واحد استوعب فيه أسماء صحابة رسول الله ﷺ وأكمل مافات علي كل من ابن عبد الحكم في تاريخة وتاريخ ابن يونس وطبقات ابن سعد وتجريد الذهبي وقد بلغوا عنده ما يزيد علي ثلاثمائة صحابي وهذا الكتاب قد لخصه السيوطي وأضاف عليه ورتبه حسب حروف المعجم وأسماء در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة.(٢)

ومن أشهر الذين جلسوا للحديث في الفسطاط عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر واختط فيها لنفسه داراً وهي التي دفن فيها بعد وفاته، وعرف عبد الله بن عمرو بن العاص بحفظه لاحاديث رسول الله ﷺ، خاصة وأنه دون من الأحاديث النبوية الشريفة ألف حديث اشتملتها صحيفته التي نقلها معه إلي مصر، ويخبرنا عبد الله بن عمرو يقول: (استأذنت النبي ﷺ في كتابة ما سمعت منه فأذن لي فكتبته) ويذكر ابن سعد بروايات إن عبد الله بن عمرو كان يسمي صحيفته تلك الصادقة.(١)

---

(١) المقريزي الخطط: حـ١، ص ص٢٩٥-٢٩٦.

(٢) السيوطي حسن المحاضرة حـ١٤، ص٩٩

وقد روي عمن رأي هذه الصحيفة عنده وقد سأله عنها فقال هذه الصادقه فيها ما سمعت من رسول الله صلي الله عليه وسلم،ليس بيني وبينه فيها أحد (٢)

حضر عبد الله بن عمرو بن العاص مع أبيه إلي مصر بعدما ندم علي اشتراكه فيصفين، وروي عنه أنه قال مالي وصفين، ومالي ولقتال المسلمين وبعدما استقر فيها وذاع صيته جلس للتدريس في جامع عمرو بن العاص،وتحلق حوله التلاميذ واستمع له المشاهير من التابعين، ويمكن القول أن حلقة عبد الله بن عمرو كانت الأولي من نوعها في مسجد والده، وكان من بين الرجال الذين جلسوا إليه سويد قيس التجيبي وعبد الله منين اليحصبي، ويزيد بن رباح وأبي عبيد بن عقبة بن نافع.

ويعد عابس بن سعيد المرادي من أشهر تلاميذه ويذكر لنا الكندي في كتابه الولاة والقضاة أن شهرة عابس قد ذاعت، وعرف عنه عدله وورعه فولاه عبد العزيز بن مروان القضاء والشرطة في الفسطاط. (٣)

ومن أشهر الرواة الذين رووا بالمدينة المنورة والفسطاط أبو بصرة الغفاري الذي عنه نقل ابن عبد الحكم عدداً من الأحاديث وهو من أصحاب النبي ﷺ نزل بمصر ودفن بها،ولا يمكن أن نغفل في هذا المقام الإشارة إلي أبي أيوب الأنصاري الذي حدث بالفسطاط وعنه أخذ الحديث ويخبرنا ابن سعد أن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى الذي صحب رسول الله ﷺ نزل بمصر وروي عنه المصريون، كذلك كان من بين من نزل مصر وروي بها أحاديث رسول الله ﷺ مسلمة بن مخلد بن الصامت.

ومن بين الرواة عبد الله بن عقبة بن لهيعة الذي حدث بمصر ايضاً لكنه لم يصل إلي منزلة الليث بن سعد، فيروي عنه ابن سعد لأنه كان ضعيفاً وعنده حديث

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبري حـ٧، ص ٤٩٤: ٤٩٥

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبري حـ٧ ص٤٩٤

(٣) - الكندي: الولاة والقضاة ص ٣١١

كثير، وكان يقرأ عليه في مصر فلم يكن يصرح برأيه ويسكت عما ليس من حديثه وفي حلقته بالمسجد العتيق ظل يحدث ويدرس الحديث حتي وفاته عام١٧٤هـ/ ٧٩م في خلافة هارون الرشيد.(١)

وكانت الخطوة الإيجابية التي أسرعت بظهور المدرسة التاريخية في مصر، قيام المحدثين المسلمين بتدوين أحاديث رسول الله ﷺ حيث شجع عليه الخليفة الأموي عمربن عبد العزيز، وذلك لشدة حرصه علي الحفاظ علي الحديث.

وابن لهيعة هو أبو عبد الرحمن بن لهيعة بن عقبة الغافقي، وقيل الحضرمي، وهو من مشاهير قضاة مصر (١٥٥ ١٧٤هـ / ٧٧١: ٨٧م)و هو من العلماء المصريين الذين ولدوا بالفسطاط وعاشوا بها، وكان شغوفاً بجمع الحديث فقد اشتهر بأنه من الكاتبتين للحديث والجماعين للعلم والرحالين فيه وقد اشتهر بذلك حتي عرفه الناس بأبي خريطة حيث كان يعلق خريطةفي عنقه.(٣)

وقد اختلف في صدق رواياته فقد ووصف بالضعف وسوء المذهب ورمي بالتشيع، لكن الذهبي في ترجمته له يورد روايات لرجال وصفوه بالصدق والعلم، فقد روي عن زيد بن الحباب الذي روي عن سفيان قال «كان عند ابن لهيعة الأصول وعندنا الفروع».(٣)

اما الليث بن سعد فقد حدث بمصر، وقد عرف بين المحدثين بالثقة، وكان كثير الحديث صحيحه يروي ابن سعد: أنه استقل بالفتوي بمصر في زمانه، وكانت له مجالسه في جامع عمرو حيث بلغت أربعة، خصص منها مجلس للحديث.

ولد الليث بن سعد بقرية قلقشنده عام٩٤هـ/ ٧١٢م وسمع علماء المصريين والحجازيين، وروي عن عطاء بن رباح وابن أبي مليكة وشهاب الزهري، وحدث

---

(١) ابن سعد الطبقات الكبري جـ٧ ص٥١٦

(٢) سعد زغلول عبد الحميد فتوح المغرب الأندلس رواية ابن عبد الحكم دراسات عن ابن عبد الحكم ص ص ١٧١، ١٧٢

(٣) المقريزي الخطط جـ٢، ص٢٥٥

عن هشيم بن بشير وعبد الله بن المبارك وعبد الوهاب بن وهب وعبد الله بن عبد الحكم ويحيي بن بكير.

زار العراق وتعلم علي شيوخها، ورحل إلي الحجاز لأداء فريضة الحج وهناك التقي بابن شهاب الزهري، وعنه قال ابن بكير: ما رأيت أحداً أكمل من الليث بن سعد، كان فقيها عربي اللسان يحسن القرآن والنحو. (١)

وكان الليث بن سعد يعقد في كل يوم أربعة مجالس في الفسطاط، أما الأول فيجلس ليأتيه السلطان في نوائبه وحوائجه، وكان الليث يغشاه السطان فإن انكر من القاضي أو من السلطان أمرا كتب إلي أمير المؤمنين فيأتيه العزل، وكان يجلس لأصحاب الحديث، ويجلس للمسائل يغشاه الناس فيسألونه، ويجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد من الناس فيرده. وعنه قال ابن وهب: لولا مالك والليث بن سعد لضل الناس وذهب العلماء والمحدثين بما يحفظون من أحاديث رسول الله. (٢)

وعندما حل الإمام الشافعي أبو عبد الله محمد بن أدريس بالفسطاط ازدهرت حركة تدوين الحديث والتحري عن صحته وإسناده، فقد انتهز أهل الحديث في مصر وجود الشافعي بينهم فكانوا يتوافدون عليه في مسجد عمرو بن العاص حيث الشافعي رضي الله عنه يقضي الساعات الطوال من بعد صلاة الفجر حتي صلاة الظهر في المسجد محدثا وفقيهاً ونحويا يفيد الناس بعلمه الذي أفاءه الله عليه.

جاء الإمام الشافعي إلي مصر بعد ترحاله الطويل طلباً للعلم فقد طوف ببلاد فارس وما حولها من بلاد الأعاجم وزار بغداد ورحل إلي بلاد ربيعة ومضر، ووصل إلي شمال العراق، وزار جنوب بلاد الروم ثم عاد إلي بلاد الشام حيث قضي وقتا في حران، ومنها ذهب إلي فلسطين ثم اتجه إلي المدينة المنورة، حيث

---

(٢)ابن سعد: الطبقات الكبري حـ٧، ص٥١٧

(٣) ابن خلكان: وفيات الاعيان. حـ٤، ص ص ١٢٩- ١٣٢

التقي بالإمام مالك وذلك في عام١٧٤هـ/ ٧٩٠م. وفي المدينة وصلته الأخبار بوفاة الليث بن سعد في ١٧٥هـ/ ٧٩١م فحزن عليه الشافعي حزنا شديداً، لكنه ظل بالمدينة المنورة في صحبة الإمام مالك يتعلم علي يديه وينهل من علمه وفضله حتي توفي الإمام مالك ودفن بالبقيع عام ١٧٩هـ/ ٧٩٥م.

ومن تلامذه الليث بن سعد المشهورين الفقيه المحدث المؤرخ سعيد بن عفير ولد بمصر عام ١٤٦هـ/ ٧٦٣م كما شب وتلقي علومه فيها ثم رحل إلي المدينة المنورة وهناك تعم علي يدي الإمام مالك، وزار بغداد وعاد الي مصر حيث التقي بابن عبد الحكم، ومما يؤكد ذلك أن سعيد بن عفير كان من الرواة الذين ذكرهم ابن عبد الحكم في تاريخه.

وكان العلماء يتلقون عنه العلم في المسجد وعلي باب داره وكان من أهم تلامذته الربيع الجيزي، واسماعيل المزني، وحرملة التجيبي ومحمد بن عبد الله بن الحكم ، وكان من بين تلامذته نساء كثيرات منهم السيدة أخت المزني الذي أخذ عنها العلماء وأدرج أسمها في جدول كبار فقهاء الشافعية.

وفي عام ١٨٢هـ/ ٧٩٨م دخل الشافعي مصر وبدأ فيها حياته العلمية وأخذ يلقي دروسه في جامع عمرو. (١)

وظل الشافعي رضي الله يثري الحركة العلمية بفسطاط مصر في الحديث والفقه والفتيا والعلوم واللغة والكلام، والتدريس والتأليف والتصنيف حتي توفاه الله في رجب عام ٢٠٤هـ/ ٨١٩م.

وفي الفسطاط التقي بالإمام الشافعي ابن هشام صاحب سيرة رسول الله ﷺ وهذا يؤكد لنا أن الحركة العلمية في مصر في ذلك الوقت كانت تتركز حول أقطاب كبار كان لهم باع كبير في تعميق جذورها،ومن هذا نخلص إلي أن هذه المقدمات كلها قد نتج عنها قيام المدرسة التاريخية المصرية التي انسلخت ولا شك من ذلك الصرح العظيم الذي شيده هؤلاء الرجال بما أسسوه من علوم الإسلام

---

(١) الشافعي. الام. جـ١. ص ص ١١، ١٣.

والعربية.

وكان جامع أحمد بن طولون مركزاً للعلم والتدريس ففيه أملي الربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعي، وذلك في حضور أحمد بن طولون الذي دفع له كيساً من النقود فيه ألف دينار ويبدو أن أحمد بن طولون كان يحضر هذا الاملاء واستمر التدريس في الجامع الطولوني حتي العصر المملوكي فيخبرنا السيوطي أن الأمير علم الدين سنجر رتب دروس التفسير والحديث والفقه علي المذاهب الأربعة هذا بالإضافة إلي القراءات والطب والميقات. (١)

كما أوقف علي الجامع أوقافاً وتولي نظر المسجد في عصر السلطان لاجين قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وفي أيام الناصر تولي نظره أميرمجلس.(٢) ولدت إذن المدرسة التاريخية المصرية مع منتصف القرن الثاني الهجري لتصبح في القرن الثالث الهجري واضحة المعالم، ظاهرة الأهداف، تخدم علماً جديداً يقوم علي تأصيله وتعميق جذوره المؤرخون المحدثون أولاً ثم المؤرخون الذين تربوا في مدرسه الحديث وتعلموا فيها، لكنهم استطاعوا أن يجعلوا التاريخ تخصصاً وعلماً له سماته الخاصة وأهدافه الواضحة وأسلوبه المتميز، ومنهجه المستقل، ومجالاته المحددة فكتبوا السير والمغازي والفتوح، وألفوا في الرجال والطبقات ثم انتقلوا من ذلك إلي التاريخ الموسوعي العام، والتاريخ المحلي الخاص كما كتبوا في الرحلات والمسالك والممالك والبلدان، وصنفوا في التراجم والوفيات وتخصصوا في النظم الإسلامية فظهر أولئك الرجال الذين كتبوا في الخراج والأموال، وقوانين الدواوين، والفرق الإسلامية، والعملة والصكة والخطط والمدن، والتراجم الخاصة بالملوك والخلفاء والأمراء والسلاطين وذلك علي مراحل متتالية شهد فيها علم التاريخ تطورات جوهرية ظهرت في المؤلفات التي اختصت به كعلم قائم بذاته ولعل من أشهر تلك المؤلفات ما دونه المؤرخ المصري الشمس السخاوي.

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة. حـ٢ ص١٨٣

(٢) انظر السيوطي: حسن المحاضرة حـ٢، ص ص ١٨٢-١٨٣

المؤرخون الأول:

ومع النشاط العلمي والفكري الذي شهدته الفسطاط بدأت التدوين التاريخي الذي يعود إلي منتصف القرن الأول الهجري فقد ظهر من الرجال من دون تاريخ الفتح الإسلامي لمصر ومن هؤلاء الرواة تميم بن أوس الداري، وكان يقص القصص ويروي التاريخ في مسجد عمرو لكنه توفي ٤٠هـ/ ٦٦١م، ومن بعده جاء تبيع بن عامر الحميري الذي أسلم بعد الفتح وعمل بالفسطاط في تدوين الصحائف والأخبار وعنه أخذ أهل مصر وتوفي عام١٠١ هـ/ ٧١٩م. وتبع هؤلاء عروة بن الزبير الذي جلس في مسجد عمرو راوياً للمغازي والسير.

وبنهاية القرن الأول الهجري ظهرت التآليف والمدونات في أخبار الفتح الإسلامي لمصر وكان ذلك علي يدي أبي قبيل بن هانيء المعافري الذي يعد من أقدم الرواة في مصر وتوفي عام ١٢٨هـ/ ٧٤٥م، وكان ليزيد بن حبيب اهتمام ملحوظ بالرواية التاريخية، وما ترك من أعمال كانت مصادر أولية لكل من ابن عبد الحكم والكندي في مؤلفاتهما

وممن تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد عبد الله بن وهب الذي يمكن أن نعده من أهم الرجال الذين عنوا بالتاريخ وتدوينه والتأليف فيه، وقد ذكر لنا المقريزي أنه صنف كتاباً في التاريخ أسماه تاريخ مصر.

وقد ذكر المقريزي حسين بن شفى في حديثه عما إذا كانت مصر قد فتحت صلحاً أم أنها فتحت عنوة مما يدلل علي أن كتابة التاريخ قد بدأت في مصرمنذ القرن الأول.

ويمكن القول أن الإهتمام بالتدوين التاريخي قد سار جنباً إلي جنب مع الفروع الأخري للعلوم الإسلامية التي لاقت اهتماما كبيراً من العلماء والفقهاء والمحدثين المسلمين.

وكان لذلك التجمع الكبير للعلماء المحدثين والفقهاء والنسابة والإخباريين

واللغويين الأثر الأكبر في الاهتمام بالرواية التاريخية التي شهدتها الفسطاط سواء في مسجدها الجامع أو في مجالس العلماء في الاسكندرية التي عاشت هي الأخري نهضة علمية ملموسة قامت علي أيدي فقهاء المالكية بها.

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه المقدمات قد أدت إلي مولد المدرسة التاريخية المصرية في كنف المدرسة الفقهية بها ،ومولد علم التاريخ كعلم له أصوله وقواعده المستمدة من الأصول والقواعد والأسس التي وضعها المحدثون المسلمون لعلم الحديث، وبصفة خاصة الاسناد في الرواية التاريخية التي لازمت المؤرخين في كتاباتهم لمدة طويلة واتضحت بشكل كبير في كتابات الطبري.

وكان لعبد الله بن عبد الحكم والد المؤرخ الشهير عبد الرحمن بن عبد الحكم دور مشهور في هذا المجال وكانت تحت يديه المصادر الأولية التي كتبها سابقوه فنري المقريزي في خططه يروي عن أبن عبد الحكم الذي يروي بدوره عن الليث بن سعد، وعن يزيد بن حبيب كما يروي عن ابن لهيعة. ومع القرن الثالث الهجرى تبدأ المدرسة التاريخية المصريةمسيرتها الحقيقية التي جاءت علي يدي المحدث المؤرخ الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم ١٨٧: ٢٥٧هـ/ ٨٠٣: ٨٧١م.

لقد كان للبيئة التي نشأ فيها عبد الرحمن بن عبد الحكم أثرها في اهتمامه بالتاريخ بل وقيامه بالخطوة الإيجابية الأولي في تدوين تاريخ مصر، ولقد أسس بكتابه فتوح مصر وأخبارها مدرسة مصر للتاريخ التي أكملها المؤرخون المصريون من بعده، وأصبح كتابه أقدم كتاب في تاريخ مصر الإسلامية. (١)

كما أصبح كتاب عبد الرحمن بن عبد الحكيم المصدر الأساسي لكل من كتب من بعده من اللاحقين عن تاريخ مصر، فقد اعتمد عليه الكندي في الولاة والقضاة والحسن بن زولاق صاحب كتاب تاريخ مصر، وعز الدين المسبحي المؤرخ مؤلف كتاب تاريخ مصر والقضاعي المؤرخ والمقريزي وغيرهم.

---

(١) سيدة كاشف . المنهج التاريخي لابن عبد الحكم ص ٣

وكان لابن عبد الحكيم منهج سار عليه في تدوين التاريخ فعنه يقول ابن خلكان: (إنه عالم بالاحاديث والتواريخ وألف كتاباً في الفتوح وغيرها) [1] وابن عبدالحكم هو المحدث المؤرخ الذي طبق أصول تدوين الحديث في كتابة التاريخ وكان عبد الرحمن بن عبد الحكم محدثاً وفقيهاً تفقه في علم الحديث استطاع أن يوظف علمه ومهارته في الحديث لخدمة التاريخ واستطاع عبد الرحمن أن يستخدم الرواية الشفويه في تدوين تاريخ مصر، فقد روي عن والده، وعن الليث ابن سعد، وعبد الله بن صالح، وابن لهيعة ويزيد بن حبيب وغيرهم من محدثى القرن الثاني الهجري.

كذلك اعتمد الرواية المدونه وهذه قليلة وإن كانت مثبته وموجودة في كتابه فقد اعتمد علي بعض الرسائل المتبادلة بين خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبين والي مصر عمرو بن العاص بشأن أمور إدارية في مصر وخاصة ما يتعلق بالخراج، هذا بالإضافة إلي ماكتبه سعيد بن عفير المصري١٥٤ : ٢٢٣هـ/ ٧٦٣ : ٨٤١م، وابن بكير المخزومي ١٥٤ : ٢٢٣هـ/ ٧٧٠ : ٨٤٥م .

تخصص ابن عبد الحكم في كتابه تاريخ خاص لمصر وهو بذلك يبتدأ نموذجاً جديداً من نماذج التأليف التاريخي وهو التاريخ المحلي، وإن كان هناك ما يفيد من المصادر الإسلامية أنه كتب في هذا الصنف من التاريخ وفي غيره مما كان سائدا في ذلك الوقت وهو التاريخ العام.

نماذج التأليف التاريخي:

ينسب إلي ابن عبد الحكم أنه أول من أدخل في منهج التدوين التاريخي العناية بالخطط، وعلي هذا النحو سار مؤرخو مصر الإسلامية الذين ركزوا أعمالهم علي الخطط ومنهم الحسن بن زولاق والمسبحي والقضاعي والمقريزي وغيرهم [2]

ويعرف كتاب ابن عبد الحكم بكتاب فتوح مصر وأخبارها، وأيضاً فتوح مصر وأفريقية والاندلس كما ورد في بعض المخطوطات وقد طبع الكتاب لأول مرة

---

(١)- ابن خلكان وفيات الأعيان جـ٢ ص ٢٤

(٢) - د عبد الرحمن زكي خطط الفسطاط فيص ص ٤٩ ٥

في ليون عام ١٩٢٠ بعناية الأستاذ تشارلز توري الذي تحدث في مقدمته عن الكتاب عن حياة أسرة ابن عبد الحكم ومكانة أبيه في مصر كشيخ للمالكية، ودور إخوانه، وما آلت إليه ظروفهم والمحنة التي تعرضوا لها علي أيدي الخليفة العباسي الذي أرسل من يقوم بالتفتيش علي بني عبد الحكم الذين كانوا قد تولوا علي الاستيفاء، لكن رسل الخليفة لم يجدوا شيئاً بل وجدوا الخزانة خاوية ومن ثم أوقعوا بهم أشد أنواع العذاب، ومات إخوان ابن عبد الحكم من أثر ذلك التعذيب، ولما ثبتت براءة أسرة ابن عبد الحكم علي أيدي القضاء أطلق سراح الأخوين الآخرين لكن سمعة أسرة ابن عبد الحكم كانت قد خدشت وتأثرت بشكل كبير. (١)

ويقول محقق الكتاب إنه يبدو أن ابن عبد الحكم كان قد أملي كتابه علي بعض تلاميذه الذين كانوا يجتمعون معه لسماع ما يمليه، ويبدو أيضاً أن أجزاء كبيرة مما كان يمليه ابن عبد الحكم كان يدون في نفس الوقت مما تؤكده المخطوطات الموجودة في لندن وباريس وليون. (٢)

وقد استطاع ابن عبد الحكم أن يواصل الكتابة بالرواية المسندة مشيراً إلي بعض مصادرة مثل ابن بكير وابن لهيعة. (٣)

وعلي الرغم من أهمية كتاب ابن عبد الحكم فإننا لا نسمع عنه لفترة طويلة من الزمن حتي ظهر في كتابات الكندي. فهو أول من أفاد من كتاب ابن عبد الحكم بل وكتابات أسرته أيضاً. لكننا لا نستطيع أن نغفل الدور الذي قام به ابن قديد الأزدي الذي روي عن ابن عبد الحكم، والذي يبدو أنه استطاع الحصول علي نسخة من المؤلف الذي تركه ابن عبد الحكم وذلك في أواخر القرن الثالث الهجري، وبهذا الطريق وصل إلينا كتاب ابن عبد الحكم الذي تناقلته تلامذة ابن

---

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر واخبارها- المقدمة ص٣

(٣) ابن الحكم: فتوح مصر واخبارها المقدمة. ص٢

(٤) انظر الكندي: الولاة والقضاء

قديد وهم أبو بكر بن الفرج القماح، وأبو الحسن علي ابن منير بن أحمد الخلال، ثم أبو صادق مرشد بن يحيي المديني ثم جاء آخر الرواة الذين نقلوا كتاب ابن عبد الحكم وهو الطاهر السلفي الأصفهاني المتوفي عام ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م الذي يقول في أخبر الشيخ الفقيه الإمام الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم السلفي الأصبهاني قراءة عليه وأنا أسمع بثغر الأسكندرية حماه الله قال: أخبرنا الشيخ أبو صادق مرشد بن يحيي بن القاسم علي المديني بقراءتي عليه قال: أخبرنا الشيخ أبو الحسن علي بن منير الخلال في كتابه سنة خمس وثلاثين وأربعمائة أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج القماح أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبدالحكم. (١) وهذا يوضح لنا كيف عاش الكتاب وكيف كانت رحلة مؤلف ابن عبد الحكم حتي وصل إلينا، ومن حسن الحظ أنه لم يفقد خلال تلك الرحلة، فقد استطاع رجال الحديث الثقاة أن يحفظوا هذا العمل، وهذا يجعل المؤرخ يثق في صحة الكتاب الذي تلقاه الطاهر السلفي من شيوخه عن ابن قد يد الذي لم يلتق به ولم يدرس عليه فقد كان طفلاً عندما توفي عبد الرحمن بن عبد الحكم في عام ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م هذا من جهة ومن جهة أخري فيمكن القول أن ثمة نسخة أخري من كتاب ابن عبد الحكم قد وصلت مباشرة عن ابن قديد إلي الكندي الذي أشار إليها في كتاب الولاة والقضاة. (٢)

يقول ابن عبد الحكم: حدثنا أبي عبد الله بن عبد الحكم حدثني رشدين بن سعد وحدثنا عبد الملك بن مسلمة حدثنا عبد الله بن وهب عن حرملة بن عمران التجيبى عن عبد الرحمن بن شماسة المهري قال: سمعت أبا ذر يقول: قال رسول الله ﷺ: إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحم.

وهذا يجعلنا نعتقد أن مؤرخنا عبد الرحمن بن عبد الحكم اعتمد علي ما

---

(١) ابن عبد الحكم فتوح مصر وأخبارها ص٣

(٢) انظر الكندي الولاة والقضاة ص٤٦٥

ترك أبوه عبد الله من روايات ربما تكون قد دونت واستفاد منها عبد الرحمن بن عبد الحكم عند كتابته لتاريخه فتوح مصر وأخبارها.

وعلي هذا فاننا نعتبر عبد الرحمن بن عبد الحكم هو المؤسس الأول للكتابة التاريخية في مصر، وكتابه هو المصدر الأول الذي استقي منه المؤرخون المصريون الذين جاءوا من بعده مادتهم عن تاريخ مصر. فله اذن الفضل في تأسيس المدرسه التاريخية المصرية وفي وضع اللبنة الأولي في صرح التدوين التاريخي في مصر.

ومع القرن الثالث الهجري بدأت المدرسة التاريخية المصرية تشهد خطوات حثيثة نحو التقدم الملموس في الكتابة التاريخة فقد ظهر الكندي تلميذ ابن قديد، والذي قدم لنا كتابه الولاة والقضاة، وهو الحلقة التالية مباشرة لما قدمه عبد الرحمن بن عبد الحكم للمدرسة المصرية.

والكندي هو أبو عمر التجيبي الكندي ولد في فسطاط مصر عام ٢٨١هـ / ٨٩٧م وكان من العلماء والمحدثين المشهود لهم بالمكانة الخاصة، وكان من أعلم الناس بأحوال مصر وأهلها، وقد درس الحديث والسنة والفقه علي أئمة فحول، منهم أبي عبد الرحمن النسائي، ومن ثم فقد أعد الكندي ليستكمل الكتابة التاريخية في المجال الإداري ذلك أنه تناول تاريخ الولاة في مصر وتاريخ القضاة فيها وهو لا يقتصر علي ذلك بل يتناول من ولي الصلاة ومن ولي الحرب والشرطة ومن جمع له الحرب والصلاة كما يذكر في مقدمة كتابه

والكندي في واقع الأمر قد ألف كتابين الأول تسمية ولاة مصر وفيه ينتهي حتي بداية عصر الأخشيديين أما الثاني فهو تسمية قضاة مصر وفيه تناول قضاة مصر منذ أن فتحها المسلمون حتي منتصف القرن الثالث الهجري. لقد استطاع الكندي أن يطور ويضيف إلي التصنيف التاريخي، وأن يستخدم ما قدمه عبد الرحمن بن عبد الحكم بشكل جعله يستخرج نموذجاً جديداً من التأليف التاريخي وخاصة الخطط، وعنه يقول تقي الدين المقريزي في كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار أول من رتب خطط مصر وآثارها وذكر أسبابها في ديوان جمعه أبو

عمر محمد بن يوسف الكندي. [1] كذلك يخبرنا السيوطي أن للكندي كتابا اسمه الخندق وذلك في ترجمته لأحد الصحابة الذي شهدوا فتح مصر. [2] ويمكن القول أن الكندي قد أفاد ممن قبله وخاصة ابن عبد الحكم مؤسس هذا العلم الجديد أو هذا النوع الجديد من التصنيف.

وبهذا يكون القرن الثالث الهجري قد مهد الطريق لما شهده القرن الرابع من تطور في فن كتابة التاريخ وتحقيق استقلاليته كعلم من العلوم الإسلامية الذي اضطلعت مصر فيه بعبء كبير لبنائه ووضع أسسه وتطوير مناهجه وتوسيع مجالاته حتي إذا أشرف القرن الرابع الهجري علي الانتصاف طالعنا مؤرخ مصري أمسك بزمام الموضوع ليسهم بمثل إضافة حقيقية لعلم التاريخ.

لقد ظهر ابن زولاق في مصر بعد أستاذه الكندي في العصر الي شهد نهاية حكم الطولونين وبداية حكم الأخشيديين كما عاصر تحول مصر إلي سلطنة الفاطميين، ولقد تأثر ابن زولاق بهذه التغيرات التاريخية الخطيرة في تاريخ مصر.

وقد وصفه ابن خلكان بأنه كان فاضلاً في التاريخ، وله فيه مصنف جيد وله أيضا كتاب في خطط مصر استقصى فيه.

وكتب ابن زولاق في أخبار القضاة وهو كتاب الذي ذيل به علي كتاب ابن عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي الذى ألفه في أخبار قضاة مصر وانتهي فيه إلي عام ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م، فأكمله ابن زولاق ،وانتهي فيه إلي عام ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م ومن مؤلفات الحسن بن زولاق الهامة أيضا سيرة الإخشيد التي احتفظ ابن سعيد بقطعة وافرة منها في كتابه المغرب، وله أيضاً سيرة أحمد ابن طولون،وسيرة خمارويه.

---

(١) المقريزي ، الخطط، ج١، ص٤

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة: ج١، ص٢٠١

وقد ضاعت معظم مؤلفات ابن زولاق إلاما حفظ منها خلال استخدام المؤرخين المسلمين لها ولقد عاشت كتب ابن زولاق حتي القرن التاسع الهجري حيث نجد أن السيوطي وابن حجر العسقلاني والسيوطي وابن تغري بردي والمقريزي يشيرون إلي ماكتب إشارات متفرقة عن كتب مختلفة. ونستطيع القول بأن الحسن بن زولاق قد وضع الأسس لأنماط جديدة من التاريخ تحسب للمدرسة المصرية فقد كتب في التاريخ الإداري وكتب في تراجم الحكام والخلفاء، أي أننا أمام مؤرخ للدولة كتب تاريخا اداريا ثم أفاض في الخطط وهو بذلك يضيف إلي من سبقه في هذا المضمار إضافات أكثر دقة وأكثر تنسيقا .(١)

كما كتب ابن زولاق أيضا تاريخاً للمعز لدين الله الفاطمي، فهو قد شهد دخول الفاطميين إلي مصر، وانتهاء حكم بني الاخشيد الذين عرفهم وخدم في دولتهم وألف لهم.

لقد اتصل ابن زولاق بالفاطميين أيضا، وكان من شهود العيان لعصر المعز وعصر ابنه العزيز، واتصل بالقائد جوهر الصقلي، وعلي الرغم من أن ما كتبه ابن زولاق عن سيرة المعز لدين الله الفاطمي لم يصل إلينا بشكله الأصلي إلا إننا نلمسه بوضوح في كتابات المقريزي وخاصة في كتاب اتعاظ الحنفاء بذكر الأئمة الخلفاء.

ويتضح من استخدام المقريزي لما ألفه ابن زولاق عن الفاطميين أنه تطرق إلي النظم التي أدخلها الفاطميون إلي مصر، والأحوال العامة عند الفاطميين، وطرائق الحكم والإدارة والاحتفالات الرسمية والدينية، وأساليب الانفاق ومظاهر البذخ، ومواكب الشيعة وطرقهم في استقبال الأعياد إلي غير ذلك من الظواهر والأحداث التي شهدها ابن زولاق ودونها في كتابه ثم نقلها عنه المقريزي بشكل تفصيلي دقيق.

---

(١) انظر : ترجمة ابن زولاق في . وفيات الأعيان حـ٢، ص ص ٩١ : ٩٢

وتمضي المدرسة التاريخية المصرية في تطورها لتواكب زميلاتها المدارس الاسلامية الأخري في بغداد ودمشق وكذلك في أقاليم الدولة الاسلامية فنحن نعلم أن القرن الرابع الهجري شهد ميلاد المؤرخين العظام الذين أثروا المدارس التاريخية الاسلامية بوجه عام، ومن بينهم المؤرخين المصريين الذين ما غاب عنهم ما كان يجري من تطورات هائلة علي الصعيدين العلمي والفكري للمسلمين ومن ثم كان لهم الدور الكبير الذي أسهموا به تدوين تاريخ مصر.